أنوثة الكتابة وصورة الآخر في رواية: في قلبي أنثى عبرية لخولة حمدي

د / أحمد بقار
جامعة قاصدي مرباح ولاية ورقلة

تحاول هذه الدراسة الموسومة ب : (أنوثة الكتابة و صورة الآخر في رواية (في قلبي أنثى عبرية) لخولة حمدي، أن تضع يدها على سمات الكتابة الأنثوية التي تتميز بها هذه الرواية ، كما تبحث في مصطلح الأدب النسوي واضطراب التسمية ، ثم الخوض في إبراز المظاهر النفسية التي تنبني عليها شخوص وزمكان الرواية ، كما تحاول البحث في صورة الآخر المغاير من خلال السرد .

- البعد النفسي للعنوان و دلالته .
- سلوكيات الشخصيات (الشخصية المتفتحة المتسامحة / الشخصية العدوانية المتعصبة / الذات و الآخر في الرواية) .
- زمكان الرواية و تداخلهما .

Abstarct :

The femininity of writing and the picture of the other one in the novel of (fi qalbi ontha A'breya) by khaoula hamdi

This study characterized by fimininity of writing and the picture of the other in the novel of (fi qalbi ontha A'breya) by khaoula hamdi is trying to put hand on the characteristics of feminine writing .

It also deals with the expression of feminin literature and the confasion of denomination . then . breaking into shouring psychological aspects on which are based personalities . time. Place . of the novel .

It is trying to look for the picture of other one different by narrating .

1. The psychological dimensin and its indcation .
2. The behaviors of personalities .

* The open – tolerant personlity .
* The agressive – fanatic .
* The self and the other in the novel story .

3. Time and place of the novel and thier interference .

إن الحديث عن أدبٍ يتعلق بالمرأة أو النساء بشكل عام، حديث يقودنا حتما إلى إشكالية المركز والهامش، فالمركز هو كل مقدس يحظى بالعناية و يقع في دائرة الضوء ، و يُدافعُ عنه ، أما الهامش فهو كلُّ فكر أو أدب ينشأ في العتمة ، و لا يُسمح له بالظهور في دائرة الضوء ، فالمركز " يحظي بالرعاية السامية فتقام له المهرجانات و الأماسي ويدرج في المناهج التربوية

وإجمالا ؛ هو الأدب الرسمي المتداول " [1]، والهامش هو " كل أدب لا يعترف بالقوالب الجاهزة التي يفرضها لوبي الثقافة في بلادنا سواء على مستوى معالجة المواضيع والإشكاليات الراهنة التي تفرض نفسها على المبدع أو على مستوى تقنيات الكتابة الإبداعية ذاتها فيخرج المبدع عن الأعراف والتقاليد السائدة في الكتابة " [2] ، ولقد كان الأدب النسوي إلى وقت قريب يعد من أدب الهامش و الممنوع ، و تعددت تسمياته (الأدب النسوي / الأدب الأنثوي / أدب المرأة / الأدب المرأوي) ، وهذا التعدد في المصطلح و لد تعددا في الطروحات والمفاهيم ، و لكلٍّ وجهة نظره فيم يذهب إليه .

على أن الكثير من الدارسين يجمعون على أن هذا المصطلح غربي الأصل و الجذور ، تولد عن حركة التحرر النسوية في العالم الغربي ، و في عصر النهضة العربية التقطه بعض المتنورين المتأثرين بالغرب ، و يؤكدون من خلاله الدور الهام الذي بإمكان المرأة أن تقوم به ، ليطير المجتمع بجناحين .

" إن الأدب النسوي هو ذلك الأدب الذي تنتجه المرأة في سبيل تحقيق الفكر الأيديولوجي الذي باتت تؤمن به، وهو الثورة على النظرية الأدبية الذكورية و الاعتماد على ذاتها في تأسيس أعراف أدبية جديدة خاصة بها، وعليه فقد عملت على تهميش و تحييد الرجل عن عالم النص جاعلة المرأة بؤرة الإبداع النسوي ، فصارت المرأة هي المبدعة، الراوية، الشخصية المركزية الفاعلة و المهيمنة على عالم النص أملا منها في هيمنتها على العالم الواقعي بعد أن كفرت بوصاية الرجل عليها " [3]، ويصرح الناقد " عبد الله الغذامي " بقوله : " كتابة المرأة جاءت كطارئ لغوي وكحدث جديد على ثقافة قد ترسخت تقاليدها وأعرافها حسب قواعد الفحولة، ولم تجد المرأة بدا من أن تكتب مثلما كتب الرجل، فتسير في خطاه، وتستعين بمجازاته وبرموزه، وهذا لا يمكن المرأة من أن تحتل موقعا جوهريا في صناعة الكتابة، وقصارى ما ستدركه من ذلك هو أن تكون مثل الرجل، تتساوى معه أو تنافسه أو تتحداه، ولكن حسب النموذج الذكوري وبناء عليه " [4] ، هي فيم يبدو عقدة نقص جاءت من أجل فعل الاختلاف و التميز ربما .

و يحدد النقد الأمريكي الأدب النسوي في:

1. الأدب النسائي : و هو جميع ما تكتبه النساء .
2. الأدب الأنثوي : وهو الأدب النسائي المهمش، والمقموع الذي أخرسه النظام اللغوي الاجتماعي الحاكم من غير أن يشتمل على رفض النسوية.
3. الأدب النسوي الملتزم برفض الهيمنة الذكورية ورفض التمييز بين الجنسين، وانطلاقا من ذلك يقسم النقد النسوي إلى قسمين:
   I. نوع يتولى دراسة الكتابة النسائية عموما و فهم محدودياتها ومضامينها السياسية المعنية.

---

[1] / أحمد ندا – أدب المهمشين بين النخبة والصعاليك. موقع : masn.20 at .com/ New article .phpsid = 9400.56

[2] / محمد بن سعيد: أدب الهامش في المغرب : صورة المرأة ، موقع www :hac 2 univ .com / ?p=65

[3] / محمد صفوري : الأدب النسوي (إشكالية المصطلح و ثورة في المضامين) . ص 7

[4] / عبد الله الغذامي : المرأة و اللغة . ط3 . ص 208 .

II. نوع ملتزم بمقاومة الهيمنة؛ أي أن النقد النسوي يعني النقد الذي تقوم به النساء والذي يتناول الكتابة النسائية بالتحديد [1]

يدخل هذا المصطلح (الأدب النسوي) مجال التداول الثقافي والأدبي والنقدي العربي في النصف الثاني من سبعينيات القرن (20 م)، وكان للصحافة الأدبية الدور المهم في ذلك، إذ كانت أول من طرح هذا المصطلح للتداول مشيرا إلى الأدب الذي تكتبه المرأة في مقابل للأدب الذي يكتبه الرجال، مرتبطا في أقصى تقديراته بمفهوم الجنسانية ؛ أي أن هذا الجنس يتميز عن ذلك الجنس ، غزا هذا المصطلح هذا المجال طلبا للتميز والاستثناء، لهذا اضطر كثير من المبدعين و كذا الباحثين إلى وضع الأدب النسوي في مقابل الأدب الرجالي، وهذا الطرح الانفصالي جعل الكثير من الكاتبات يثرن عليه ؛ لأنه برأيهن يوسع الشرخ ، ويعيق اندماجها في المجتمع من هؤلاء نجد " يمنى العيد " [2]، و" غادة السمان " تميل إلى القول أن الحديث عن أدب نسوي هو حديث خاطئ ومفتعل لقضية الأدب، كما أن المرأة توظف سلاح أنوثتها من أجل ترويج كلماتها في مجتمعات مكبوتة تاريخيا [3]، الشيء نفسه الذي يمارسه الرجل بتوظيف سلاحه المنبثق من ذكورته و حماية المجتمع لهذه الذكورية .

الأصل في أي إنتاج فنيٍّ الإبداعُ في تجرده ببعده الجمالي الإنساني، لكن إذا دخل في مساومات ومحاولة إبراز الذات ومحاربة الآخر، يضيع الإبداع بلمسته المتكاملة ، هذه تبحث عن أنوثتها التي ترى أنها مقموعة و مقهورة، ولتثبت أنها كيان مستقل له طموحاته وآماله وآلامه ، فالكتابة بالنسبة لها فعل خلاص، وهذا يريد أن يبقي سلطته الذكورية ، وأنه هو محور الحياة، وأن كل تميز عنه يعد نشازا يرفضه المجتمع، وأمام هذا التنازع ؛ هذا لي وهذا لك، هذا ليثبت ذكورته، وهذه لتثبت أنوثتها ، يضيع ذلك التكامل الذي يجعل من الفن إبداعا إنسانيا متكاملا و يخدم الإنسان كل الإنسان، " فالفكر الإنساني ينتج عن وحدة حية هي مخ الإنسان، وهذه الوحدة تختلف في طرائق التفكير إلا لبيان الفروق الفردية " [4].

لم نكن نسمع قبلا بأدب ذكوري أو رجالي حتى يأتي في مقابله أدب نسوي أو أنثوي، فالأدب كائن واحد ويتنزل من مشكاة واحدة ، هي مشكاة الفن الجميل ، و لا يضر من أي قناة خرج ؛ فجاء الأدب النسوي ليصنع فاصلا و يحدث شرخا ، و" هكذا تصبح الكتابة نوعا من دائرة توسيع الخلاص " [5]

لكن الطرح الأنسب بالنسبة لي أن الأدب النسوي نغمطه حقه إذا ما ربطناه بجنس الأنثى، ومن ثم سيقتصر على الجانب البيولوجي، وإذا ما وسعنا دائرته ليصبح تخصصا قائما بذاته يكتب فيه الرجل كما تكتب فيه المرأة ، تماما مثل أدب الطفل الذي يدخل فيه ما يكتبه الطفل المبدع ، أو ما يكتب عن الطفل بشكل عام، أو بالأدب الذي يكتب ويوجه للطفل .

---

[1] / جريدة الأسبوع الأدبي : إطلالات على شعر و نقد النسوية الأمريكية .العدد 981. 2005 . ص 11 . 12

[2] / ينظر : يمنى العيد : مساهمة المرأة في الإنتاج الأدبي . مجلة الطريق.العدد 4 . شهر أفريل . 1975.

[3] / غادة السمان : القبلة تستوجب القتيلة.(حوار مع حبيب حنا).منشورات غادة السمان.بيروت.1981. ص121 .

[4] / أحمد إبراهيم طيبة:تطابق الصورة في متوازي الأعمال الروائية للمرأة و الرجل.مجلة الفكر. العدد 2 . 2002 . ص 227

[5] / محمد لطيف اليوسفي:لحظة المكاشفة الشعرية.الدار التونسية للنشر.تونس.ص282

الروائية " خولة حمدي " روائية تونسية واعدة مزدوجة الثقافة (عربية / فرنسية)، من مواليد 1984 بتونس العاصمة أستاذة جامعية في تقنية المعلومات بجامعة الملك سعود بالرياض متحصلة على شهادة في الهندسة الصناعية والماجستير من مدرسة "المناجم" في مدينة سانت إتيان الفرنسية سنة 2008 متحصلة على الدكتوراه في بحوث العمليات (أحد فروع الرياضيات التطبيقية) من جامعة التكنولوجيا بمدينة تروا بفرنسا سنة 2011 روايتها الأولى الصادرة سنة 2012 تحمل عنوان "في قلبي أنثى عبرية" وهي مستوحاة من قصة حقيقية ليهودية تونسية دخلت الإسلام بعد تأثرها بشخصية طفلة مسلمة يتيمة الأبوين صمدت في وجه الحياة بشجاعة، وبشخصية شاب لبناني مقاوم ترك بصمة في حياتها.

دلالة العنوان :

يعد العنوان بنية صغرى و في الوقت ذاته محورية ، و مفتاح البدء في الدخول لعالم النص أيا كان نوعه ، فانتخاب العنوان المناسب دلاليا وجماليا يسهم في فهم خصوصية النص الأدبي؛ لأنه علامة لسانية تسوق إلى فك مغلقاته، ويعمل على شد المتلقي إلى النص نفسيا وفكريا؛ فهو يحيل إلى داخل النص وخارجه، وأول مؤشر يدفع الفضول للمتلقي ويدخل معه في حالة حوار، ذلك أن " دلائل العنوان لا تملك سياقا، وإنما تمتلك فقط فضاء أكثر اتساعا من فضاءات العمل و أشد منها ازدحاما "[1].

العنوان في العربية مأخوذ من مادة " عنن " و" عنى " بمعنى الظهور والابتداء وكذا الاعتلاء...، وعنوان الشيء سمته التي تميزه عن الآخر وتعينه وتحدده؛ ومثل هذه الكلمة مثل الاسم الذي من وظيفته بيان الشيء أو الشخص وتمييزه عما سواه؛ ومن أمثله الإعجاز السورة القرآنية التي تحيط بكل الآيات الكريمات معنى ومبنى كالسور البياني لكل وحدة لغوية ودلالة مضمونية تحقق التطابق لكل جزء في السورة ، كما أنها تدل غالبا على أبرز أمر قد حوته تلك السورة خلاف غيرها، وذلك من خلال آلة التكرار والترداد لذلك الأمر تركيزا على بؤرته داخل منظومة الخطاب.

ويعرّفه ليوهوك (LEOHOEK) بقوله: "العنوان مجموع العلامات اللسانية (كلمات مفردة، جمل...) التي يمكن أن تدرج على رأس كل نّص لتحدّده، وتدل على محتواه العام، وتغرّي الجمهور المقصود" بمحتواه، فالعنوان عند ليوهوك(LEOHOEK) يحظى باهتمام بالغ، نظرا لكونه "أكبر ما في القصيدة، إذ له الصدارة ويبرز متميزًا بشكله و حجمه" منتصبًا في مقدمة الكتاب، و كذا لكونه أداةً تحدد النّص، وتعيّنه "فهو رسالة لغوية تعرّف بهوية النص، وتحدّد مضمونه، وتجذب القارىء إليه، وتغويه به" وهو بعد ذلك "نظام دلاليٌّ رامز له بنيته السطحية، ومستواه العميق مثله مثل النّص تمامًا" من حيث إنّه حمولة مكثفة من الإشارات والشفرات التي إن اكتشفها القارئ وجدها تطغى على النّص كله، فيكون العنوان مع صغر حجمه نّصًا موازيا(Paratexte) ، ونوعا من أنواع التعالي النّصي (Transtextualité)، الذي يحدد مسار القراءة التي يمكن لها أن "تبدأ من الرؤية الأولى للكتاب" انطلاقا من العنوان ولوحة الغلاف، و شكل الكتاب... »[2]، وبالنهاية فإن العنوان الأخاذ هو العنوان الملغم حمَّال

---

[1] / محمد فكري الجزار:العنوان و سيميوطيقا الاتصال الأدبي .الهيئة المصرية للكتاب.1998. ص 69 .

[2] / رحيم عبد القادر ، وظائف العنوان في شعر مصطفى محمد الغماري

الأوجة يذهب بالقارئ كل مذهب، وإذا كان هذا هو الحال، فإن الأمر يحتاج إلى قارئ حذق يستطيع فك شفرات العنونة .

جاء عنوان هذه الرواية موضوع الدراسة صادما للذائقة العاطفية والروحية والفكرية للمجتمعات العربية (في قلبي أنثى عبرية)، كيف لا وأن كل ما يتعلق بالجنس العبري يشكل حساسية من نوع خاص لهذه المجتمعات، فأول ما يلفت النظر في هذا العنوان أنه صادم، ولكن الشيء اللافت للنظر أن الروائية لم تقل أنثى إسرائيلية أو صهيونية أو يهودية لم لها من حمولات عدائية في الوقت الراهن – على الأقل - ولكنها وضعت لفظة عبرية، لقربها من لفظة (عربية) ، أضف إلى ذلك أنها ستتحدث في روايتها عن العبريين العرب، أو اليهود العرب، وتحديدا اليهود الذين يعيشون في تونس الذين قدموا من إسبانيا، واستوطنوا جزيرة جربة، ويتعبدون في أقدم كنيس في إفريقيا هو (كنيس غريبة)، وهو كنيس يعد محجا لجميع يهود العالم، ويعيش بسلام مجاورا لمساجدها ، واندمجوا مع السكان المحليين، حتى أصبح التفريق بينهم أمرا يكاد يكون مستحيلا لاكتسابهم عادات و تقاليد هؤلاء الأهالي.

يتألف هذا العنوان من شبه جملة (جار ومجرور متقدم) وجملة اسمية (متأخرة) من حيث الترتيب في الرتب المحفوظة في اللغة العربية، و الأصل (أنثى عبرية في قلبي).

فتقديم الجار والمجرور (في قلبي) يحمل دلالة الاهتمام بالمتقدم ، والقلب مكمن كل المشاعر، والروائية فيم يبدو أن قلبها تسكنه هذه الأنثى العبرية على اعتبار المتقدم – بطبيعة الحال ولا شك أن سكناها بالحب، يكفي أنها تستشهد بنص مواز في صفحة الإهداء في روايتها للشاعر المصري "أحمد بخيت " حكيا عن سلطة القلب : " القلب غمد الذكريات من الذي ... أفضى لسيفٍ في الضلوع وسلَّهْ ؟ "

وعنوان الرواية يفتح شهية الاطلاع عليها؛ لأنها تحمل فيم يبدو روحا إنسانية شفافة، كما أنها لم تقل في نفسي أو في فكري أو عقلي، وإنما قالت في قلبي والقلب بلا شك مكمن العواطف .

تعد الشخصية عنصرا بينا ومهما من عناصر البناء الروائي وكذا القصصي ، ويرجع " فلاديمير بروب " أهميتها إلى تلك العلاقات المتنوعة التي تربطها إلى الوحدات الفاعلة في السرد ، مضيفا أن " الشخصية القصصية اسم، وما تقوم به فعل بالمعنى النحوي، والربط بين اسم وفعل هو اتخاذ الخطوات الأولى نحو السرد " [1]، "الأشخاص في القصة هم مدار المعاني الإنسانية ومحور الأفكار والآراء العامة، ولهذه المعاني والأفكار المكانة الأولى في القصة " [2]

كما تعد الشخصية الرئيسية في العمل الروائي أهم شخصية و تنبني عليها الأحداث و ترتبط بها بقية الشخصيات و الزمان و المكان ، إنها " التي تدور حولها الأحداث و تظهر أكثر من الشخصيات و يكون حديث الشخوص الأخرى حولها فلا تطغى أي شخصية عليها ، و إنما تهدف جميعا لإبراز صفتها " [3]، والشخصية أو العنصر البشري هو العنصر الأهم في العملية السردية بوصفه " كائنا إنسانيا يتحرك في سياق الأحداث، تبعا للوظائف التي يؤديها والعلاقات

---

[1] / عز الدين إسماعيل : الأدب و فنونه.دار الفكر العربي.ط8. ص 152

[2] / محمد غنيمي هلال:النقد الأدبي الحديث.دار الثقافة بيروت . لبنان. 1973. ص 562

[3] / إبراهيم صبيح و آخرون:دراسات في اللغة و النحو و الأدب . دار المناهج للنشر.عمان الأردن.ط2. 1980 . ص 355

المتبادلة بينه وبين بقية النماذج المختلفة التي تشكل فضاء تركيبيا وفق المعطيات النصية ... وقد ميزتها العلاقات المنطقية التي استلزمت أن تتجه إلى نماذج بسيطة التي تشبه القارئ وتنأى عن الشخصيات الخارقة، التي لا يعرفها إلا في الخرافات والاختفاء بالتجربة الفردية في الأدب بحيث يستطيع أن يقدم صورة حقيقية للحياة" [1]

و شخصيات رواية (في قلبي أنثى عبرية) تتوزع في الشكل التالي :

- الشخصية المتفتحة المتسامحة .
- الشخصية العدوانية المتعصبة .
- الذات و الآخر في الرواية .

و الشخصيات الفاعلة في هذه الرواية هي :

أحمد : شاب متدين و من شباب المقاومة اللبنانية و شرس في المطالبة بحقه .

ريما : فتاة يتيمة أوصت بها أمها قبل وفاتها إلى جارها اليهودي (جاكوب) ليتولى رعايتها .

ندى : فتاة يهودية متفهمة و متفتحة ، هي من قامت بمداواة أحمد لما أصيب في إحدى المعارك. جاكوب : المكلف بالفتاة ريما ، احتضنها و أحبها أكثر من ولديه (سارا و باسكال) .

تانيا : زوجة جاكوب حريصة على ولديها حرصا شديدا ، و بالخصوص تعاليم الديانة اليهودية .

سونيا : أم ندى ، إنسانة جد عصبية و متعصبة .

حسان : الصديق الصدوق المخلص لأحمد ، و رفيقه في الكفاح .

سماح : أخت أحمد و كاتمة أسراره ، و زوجة صديقه أيهم و أولدها ريما تيمنا بريما الفتاة اليتيمة الصغيرة التي ماتت شهيدة ، و تركت أثرا بليغا في نفوس كل من أحبها و خالطها .

أ – الشخصية المتفتحة المتسامحة :

وهي الشخصية التي تتقبل الاختلاف بين الأديان السماوية بصدر رحب، ودونما تعصب، ونجد ذلك ماثلا في شخصية (جورج) المسيحي زوج (سونيا) أم بطلة الرواية (ندى) ، الذي تفهم وضعية ندى اليهودية بعد دخولها الإسلام ، فاجتمع في بيت واحد ديانات ثلاثة (الإسلام و النصرانية و اليهودية) ، " وفي داخل عائلة سونيا ، كانت مختلف هذه المواقف ممثلة ، سونيا نفسها كانت من اليهود المتشددين الذين يطالبون بحقهم في القدس، أرض الأنبياء، وبطرد الفلسطينيين منها " [2]، تنادي البطلة ندى زوج أمها (بابا جورج)، لشدة حنانه عليها وتفهمه لكل حالاتها في حياتها ، تقول ندى : " كان عمري خمس سنوات فحسب حين تعرفت والدتي على بابا جورج ... أرميني مسيحي، وتزوجته و جئنا جميعا إلى لبنان، حيث كان بابا جورج يعمل، كان أرملا، وله ابن وحيد من زوجته الراحلة ... ميشال ، نشأنا جميعا أنا ودانا وميشال على أننا أخوة وتوثقت علاقتنا كثيرا ... حتى أنني لم أشعر يوما أنني أفتقد إلى

---

[1] / صبري حافظ:الخصائص البنائية للأقصوصة . مجلة فصول . القاهرة . مجلد 2 /ع 4 . سبتمبر 1982 . ص 23

[2] / خولة حمدي: في قلبي أنثى عبرية.دار كيان للنشر و التوزيع.الهرم.القاهرة.2013. ص 87

وجود أبي الحقيقي في حياتي، فبابا جورج كان نعم الأب لنا أنا وأختي، بل إنه كثيرا ما كان يعاقب ميشال بدلنا حتى لا يشعرنا بأي تفرقة بيننا" [1] .

ندى في حد ذاتها (بطلة الرواية) ، منذ بداية الرواية أبدت تفهما كبيرا ، وجازفت بنفسها ومصيرها في أسرتها من أجل إنقاذ أحمد المصاب في معركة مع الصهاينة الذين غزوا جنوب لبنان ، و هي لا تلوم المقاومة اللبنانية على كل ما تقوم به من أجل وطنها ، فهي و إن كانت يهودية فهي تقر أنها لا تنتمي للفكر الصهيوني، ترى أن احتلال أرض الغير و قتل المدنيين إرهاب ، فلا غرابة و الحال هذه أن تقوم ندى بالتعمق في دراسة علم الأديان والمقارنة بين القرآن و التوراة فلاحظت فرقا شاسعا وبيّناً، إذ وجدت كل أجوبتها في السيرة النبوية و القرآن الكريم ما جعلها تقر بإسلامها، وتقاوم مقاومة شرسة بعد إسلامها، ولم تتوقف عند هذا الحد بل راحت تدعو إلى هذا الدين الذي آمنت به، والجميل في دعوتها لدينها الجديد، أنها تدعو أهلها ومن تحبهم بمحبة، مخافة أن يموتوا على غير هذه الملة ، كما تعلمت ذلك من الفتاة اليتيمة المسلمة (ريما) .

في حوار جرى بينها و بين أحمد الجريح في مستودع بيت أبيها في بداية الرواية ، يقول أحمد : " – آنستي .. أنت يهودية ، أليس كذلك ؟

نظرت ندى على الفور إلى نجمة داود التي كشفت أمرها منذ البداية و لم تعلق .

إذن لماذا تساعدينا ؟

رفعت عينيها في انزعاج و هتفت :

وما شأن ديانتي بالعمل الإنساني ؟ ألا يحث دينك على الرحمة و الرأفة و تقديم يد المساعدة إلى من يحتاجها، مهما كان انتماؤه وعقيدته ؟ أليست تلك رسالة جميع الأديان السماوية ؟

ارتبك أحمد وقد أدهشه ردها، وخفض رأسه في خجل من نفسه، فتاة يهودية تلقنه درسا في الأخلاق !! [2]" يعتذر أحمد فترد عليه ندى: لا عليك .. فما يحصل حولنا ينسينا أننا نعبد إلها واحدا ... وإن اختلفت التفاصيل والملابسات " [3].

شخصية (جاكوب) أو يعقوب باللسان العربي هذا الذي حمل أمانة كفالة ريما اليتيمة الصغيرة ولم يتحرج في أخذها والذهاب بها لحفظ القرآن أو الصلاة في المسجد وهو اليهودي ، " وقف جاكوب قرب مدخل السوق، وعيناه معلقتان بالبوابة الجانبية للمسجد الذي يبعد عنه بضع عشرات من الأمتار، أخرج منديلا ورقيا ليمسح حبيبات العرق التي تجمعت عند جبينه ، و هو يحول بصره ليتأمل باحة المسجد المفروشة بالرخام الأبيض وصومعته الباسقة التي ترتفع إلى عنان السماء، ولم يكن يستطيع في كل مرة يقف فيها هذه الوقفة أن يخفي إعجابه بهندسة المسجد و تناسق أبعاده " [4]، والأجمل من كل هذا في شخصيته فإنه " يواظب على القدوم كل يوم جمعة ليصحب صغيرته إلى الصلاة والدرس الأسبوعي، ويقف في انتظارها دون ملل أو تعب " [5].

---

[1] / المصدر نفسه : ص 65 . 66

[2] / خولة حمدي : في قلبي أنثى عبرية . ص 59

[3] / المصدر نفسه . ص 60 .

[4] / المصدر نفسه . ص 02

[5] / المصدر نفسه : ص 04

ب – الشخصية العدوانية المتعصبة :

الشخصيات العدوانية المتعصبة كثيرة في هذه الرواية ، و هي الشخصيات التي وقفت على الضد من أفكار ريما الصغيرة و ندى المتفتحة ، شخصية تانيا اليهودية زوجة جاكوب، و شخصية سونيا أم ندى، وميشال النصراني ابن جورج زوج سونيا أم ندى، هذا الأخير الذي يخاطب ندى بلهجة أكثر حدة بعد أن علم بإسلامها : " ما الذي وجدته عند المسلمين ولم تجديه عند أهلك اليهود ؟ ألا ترين ما هم عليه من التخلف والتأخر عن بقية الأمم ؟ لو كانوا على دين حق، لكان الله وفقهم وسخر لهم الإمكانيات المادية . لكن دينهم لم يساعدهم إلا على التقهقر والانغلاق ! انظري إلى الشوارع المتسخة، إلى الإدارات العامة التي تسودها الفوضى والفساد، انظري إلى الأخلاق والمعاملات في الشوارع ، في وسائل النقل، و في الأماكن العامة ... ومع ذلك فلبنان خيرٌ حالا من بلدان كثيرة ، لماذا برأيك ؟ لأن هنالك فئة من المسيحيين تمتلك القسم الأكبر من الثروات و تديرها لمصلحة البلاد؛ لأن السلطة بأيدينا " [1]، في محاولة منه لثنيها و بعث التشكيك في قلبها و روحها ، متناسيا أن ندى قد تعمقت في دراسة هذا الدين وعرفته قبل أن تعرف أهله في زمنهم هذا ، و تعمقت حتى في دراسة الشبهات و الأباطيل التي أكيلت ضده .

تراسل ندى أحمد الذي غاب و لم تعرف له مكانا و بقيت متعلقة به أشد التعلق ، و ترسل الرسائل إلى غير مرسل إليه فتقول له تخبره عن تحمسها الشديد للدعوة ، حديثها هنا عن سارا بنت جاكوب (يعقوب) المقيم في جربة بتونس : " أخي في الله أحمد ،

لم أكن أعتقد بأنني سأبدأ حملة الدعوة في هذا البيت عن طريق الصغيرة سارا . إنها فتاة مذهلة حقا. قدراتها الذهنية تتجاوز بمراحل عديدة قدرات الأطفال في سنها . و اهتمامها بالإسلام جعلني أستبشر خيرا كثيرا . أنها تقرأ بنهم الكتب التي أشتريها من المكتبة ، ثم تناقشني فيها بعقلانية و براعة شديدين . أحاول أن أجمع من المواد ما يكفي لإقناعها . أعتقد جازمة بأنني إن توصلت إلى إقناع سارا ، فلن يكون إقناع بقية أفراد العائلة سوى ضرب من التسلية ! " [2] .

ج – الشخصية اللامبالية : ونجدها في صورة شخصية سالم والد ندى التونسي المسلم ، الذي لا يحمل من الإسلام سوى الاسم ، هذا الدين الذي جاءه وراثة و لا يعلم منه سوى صوت الآذان ورسم الجدران في المسجد.

فبعد أن استقبل ابنته ندى من زوجته اليهودية الساكنة بلبنان بالمطار ، وقد هاله تغيرها الكبير بعد إسلامها، " ازدرد سالم ريقه وقال:

- ندى صغيرتي ... لا يمكنني أن أستقبلك الآن في منزلي، فزوجتي لم تتقبل بعد فكرة قدوم ابنتي من زوجتي الأولى للإقامة بيننا، لذلك فإنك ستذهبين مع عمك جاكوب الآن . إنه رجل طيب وسيعاملك جيدا ... وفي هذه الأثناء سأعمل جاهدا على إقناع زوجتي باستضافتك " [3] .

وها هي ندى تتحدث عن والدها سالم اللامبالي بها والمتحاشي لرؤيتها تقول: " لن أذهب بعيدا، ها هو والدي المسلم يقيم على بضعة شوارع من هنا، هل تراه يفكر فيَّ أو يسأل عني ؟

---

[1] / خولة حمدي : في قلبي أنثر عبرية . ص 518

[2] / خولة حمدي : في قلبي أنثى عبرية . ص 571 .

[3] / المصدر نفسه . ص 555

أو ليس تخليه عني أيضا ((شرّا)) ؟ وهل يختلف في ذلك عن أمي وشقيقتي ؟ بل أدهى ! لو كنت ظللت على اليهودية لكنت تفهمت دوافعه . لكن وقد أصبحت مسلمة، فأي مبرر يسكت به ضميره لامتناعه عن رؤيتي أو الاهتمام لأمري ؟ هل يطمئن لوجودي بين اليهود ؟ لا أجد له عذرا واحدا يا أحمد " [1] ، صورة سالم هي انعكاس لفئة كبيرة من الرجال المسلمين اللامبالين، الذين يملكون سلوكات لا تمت لدينهم بصلة ، فقط لأنهم ورثوه وراثة ؛ أو فقط لأنهم وجدوا آباءهم وأمهاتهم عليه.

د - الذات و الآخر في الرواية :

فتحت الروائية " خولة حمدي " في روايتها موضوعا يعدُّ من الطابوهات في الظرف الراهن ، موضوع الآخر المعادي ، الآخر المغتصب للأرض ، الآخر المحارب المعادي للملة ، الآخر الذي نرسم له صورة جد سوداوية، إذ تروم من خلال فتح هذا الموضوع إبراز- ربما - صورة مغايرة لوجه الآخر نبشا عن أخلاق وسلوكات وأفكار وطروحات قد يحدث من خلالها ذلك التوافق الجميل، و نبذ روح الكراهية .

تحاول الروائية إظهار الآخر بصورته من دون ماكياج ؛ الآخر بما يحويه من وجوه متناقضة بخيّرها و شريرها، تصور البطلة ندى ، و تصور من خلالها فئة عريضة من أمثالها الذين سطا عليهم الكهنة و حصروهم في زاوية ضيقة من الدين لا يجب تجاوزها من باب (اعتقد و لا تنتقد) ، " كانت تحسب نفسها ملتزمة و عارفة بدينها ، لكنها اكتشفت أن ما تعرفه هو القليل الذي تعلمته على يد أستاذها ، حين بدأت بحثها بدأت المفاجآت بالظهور ! اكتشفت أن ما تعلمته من التوراة لا يعدو أن يكون بضع مقاطع منتقاة بعناية حتى لا تحدث بلبلة في نفس أتباع الديانة اليهودية ، لكنها كلما قرأت أكثر ، تفاقمت البلبلة أكثر في نفسها ... التفاسير و التحاليل التي بين يديها لم تقنعها ، المفارقات بين النسخ المختلفة واضحة ، ورجال الدين يحاولون إيجاد التبريرات التي بدت في نظرها أقرب إلى المراوغات ... " [2]، هكذا حاولت الروائية إظهار فئة ليست باليسيرة في الديانة العبرية تعاني سطوة المقدس، فلمَّا تتاحُ لها فرصة القراءة والتعمق سيكتشف الآخر المغاير ، الآخر الذي شوهه مقدسهم و نعته بأبشع النعوت ليغدو أمامهم أضحوكة من جهة ، و عدوا لدودا من جهة أخرى .

وتصور من خلال البطلة (ندى) أيضا صورة الآخر الذي لم يذق طعم الفقد والعذاب بالحجم الذي يذوقه الفلسطينيون وسكان جنوب لبنان؛ لأنهم هم من يصنع الفجيعة فكيف يطعمون ألم الفجيعة ؟ ! فبعد استشهاد الصغيرة ريما افتقدتها ندى بكل مرارة ، فيعلق أحمد عن حالة ندى المتأزمة بفقد ريما: " كان الواضح أنها تعيش تجربة فقد الأحباب للمرة الأولى، تكتشف معنى الشهادة التي تجهل عنها كل شيء، ترى الموت يخطف حياة يافعةٍ لم تقطع سوى شوك يسير في رحلة الحياة ، ندى لم تتحمل فقدان ريما التي لم تعرفها سوى لفترة يسيرة ، انهارت و لبثت طريحة الفراش ، بالكاد تعي ما يحصل حولها " [3]، فكيف هو الحال مع الآخر ، الذين يفقدون أهاليهم تحت القصف التعسفي في كل دقيقة ؟؟

---

[1] / المصدر نفسه : ص 562

[2] / خولة حمدي : في قلبي أنثى عبرية . ص 439

[3] / خولة حمدي : في قلبي أنثى عبرية . ص 413 .

ومن صور الآخر المختلف والمتعدد في مفاهيمه أيضا، نجد حديثا عن فئة من اليهود تسمى (الناتوراي كارتا)، " ومن هؤلاء طائفة (الناتوراي كارتا) التي يرى أفرادها أن اليهود استحقوا الحكم الإلهي الوارد في التوراة بالشتات في مختلف أنحاء الأرض ، دون الانتماء إلى وطن يجمعهم و يلم شملهم ، و لذلك فإنهم يعتبرون كل محاولة لبناء دولة يهودية قبل عودة المسيح إلى الأرض خرقا للإرادة الإلهية ، لكن هذا لا يعني أن هذه الطائفة تساند الإسلام و الجهاد و تدعمه ، فهي تستنكر استعمال العنف في الصراع الفلسطيني الإسرائيلي مهما كان العدوان شديدا " [1] ، بحسب الرواية يبدو مجتمعا فسيفسائيا مثل بقية الشعوب ، ففي رسالة تبعث بها ندى إلى أحمد حين وصولها إلى تونس تحدثه عن شعبها اليهودي: " أنت تعلم، اليهود مثل كل البشر – فهم ليسوا شياطين في نهاية الأمر- أشخاص عاديون، لديهم قضاياهم التي تشغلهم ، المشكلة ليست في وجودهم في حد ذاته ، إنما في القضايا التي يدافع عنها قسم كبير منهم، والطريقة المتبعة في ذلك، أومن بأنه ليس هنالك عرق ((شرير)) بالفطرة أو في المطلق " [2].

كما أظهرت الرواية أن الرجال اليهود المتزوجين أكثر تسامحا من النساء المتزوجات، وهذا ما نلاحظه في شخصية جاكوب الذي قبل بتعايش الأديان السماوية في بيته، على أن شخصية المرأة أكثر شراسة في حرصها الشديد على تربية أبنائها على تعاليم الدين اليهودي ؛ مما يؤكد أن حمل رضاع هذه التعاليم تتحمله الوالدات .

الزمن يرى عز الدين إسماعيل أن " كل حادثة تقع لا بد في مكان معين ، وزمان بذاته ، وهي لذلك ترتبط بظروف وعادات مبادئ خاصة بالزمان والمكان اللذين وقعت فيهما، وارتباط كل ذلك ضروري لحيوية القصة لأنه يمثل البطانة النفسية " [3]، إلى جانب الزمن الحقيقي أو الفيزيائي الذي يسير وفق خط سمتري، يمكن توفر مستويين للزمن هما:

- ✓ زمن النص : و هو زمن تخيلي يختلف عن زمن الوقائع و يفارقه .
- ✓ زمن الوقائع : و هو زمن متعدد الأبعاد يحمل في الوقت الواحد أحداثا عدة .

أما زمن القصة ف " هو زمن أحادي ينمو بالكلام في التوالي ، إنه زمن التزام الصياغة و تكونها في جمل تتوالى مقيمة القول " [4] .

- ✓ زمن الخطاب : هو زمن انكساري لا يخضع زمن السرد فيه للتتابع المنطقي للأحداث ، فمثلا إذا افترضنا أن قصة ما مرت على مراحل متتابعة منطقيا في الشكل الآتي :

أ ب ج د ه

فإن سرد الأحداث في القصة يمكنها اتخاذ الخطاطة التالية :

ه ج د ب أ

يتداخل الألم مع الزمان و المكان في هذه الرواية ، فالزمان المتألم هو زمان الغزو الاستيطاني الصهيوني بامتياز ؛ و المكان المألوم فلسطين و جنوب لبنان .

---

[1] / المصدر نفسه : ص 87 .

[2] / المصدر نفسه : ص 561

[3] / عز الدين إسماعيل: الأدب و فنونه . ص 44

[4] / يمنى العيد و آخرون:دراسات في القصة العربية.وقائع ندوة مكناس.مؤسسة الأبحاث العربية.بيروت.لبنان.ط1. 1986. ص 29

ألم المكان الخطأ و الزمان الخطأ وجدنا معاناته عند الطفلة الصغيرة اليتيمة (ريما) ، التي عانت غربة المكان و الزمان حتى في بلدها الأصلي تونس ، عندما أوصت بها أمها قبل وفاتها إلى جاكوب اليهودي ليتحمل مسؤولية كفالتها ، فعاشت غربة المكان ؛ الذي هو بيت يهودي تختلف عاداته و تقاليده عن بيت أبيها و أمها، أضف إلى ذلك أن تانيا زوجة جاكوب ثار جنونها لما لاحظت هذه الصغيرة أكثر تمسكا بدينها و عفتها وحجابها وحضور صلواتها في المسجد، وبمرافقة جاكوب أيضا، لاحظت في ذلك خطرا كبيرا على ولديها (سارا و باسكال)، فأرغمت جاكوب الذي نغصت عليه حياته أن يقوم بإرسارلها إلى أخته في لبنان، للتخلص منها.

فيضطر جاكوب مرغما على فعل ذلك، مع إحساسه بعذاب الضمير، وهو يتخلى عن وعده لأم ريما بكفالتها و حمايتها؛ لكن الأقدار كانت لها بالمرصاد؛ إذ تلاقي عنتا آخر من زوج أخت جاكوب الذي أركبها الرعب كرها وعنتا منه لرؤية تدينها، فتدخل ريما الصغيرة في معترك ألم زمان جديد وألم مكان جديد، فتضطر أخت جاكوب إلى إرسالها إلى بيت صديقتها أم ندى فتلاقي منها أيضا ألما آخر. ليكون المكان اللبناني والزمان اللبناني مصيرها المحتم ، لتموت شهيدةَ قذيفةٍ صهيونيةٍ شرسةٍ غريبةَ المكان، و في الزمن الخطأ؛ زمن الغزو الصهيوني لجنوب لبنان .

وأحمد بطل الرواية ، يغيبه الفعل الصهيوني عن حضور المكان و الزمان فاقدا ذاكرته لما يفوق أربعة سنوات ليعود باسم مستعار (جون) ودين لم يدرج عليه (النصرانية)، وشخص لا يعرف أحدا، إنه الفعل الصهيوني الذي يريد مسخ الشخص والمكان والزمان، " حين استيقظ من غيبوبته، وجد نفسه في قرية جل سكانها من المسيحيين، علموه دينهم واعتبروه واحدا منهم ، فاعتبر نفسه نصرانيا مثلهم ، أحيانا كان يتساءل ... هل كان يدين بالمسيحية في حياته السابقة ؟ " [1] ، النسيان و المسخ تماما كما تمارسه الأيدي الصهيونية .

نجد شخصيات الرواية يتنازعها المكان و الزمان ، فالصراع في أصله زماني مكاني في هذه الرواية ، فالزمان كلٌّ من الأنا و الآخر يرى أحقيته بالمكان زمانيا عبر التاريخ ، و بهذا الفعل الزماني نشأ الصراع على المكان ، الصراع المر الذي ذهب ضحيته خلق كثير و ما يزال عدَّادُ الضحايا مفتوحا .

<u>على سبيل الختم</u> ، نرى أن الرواية تتميز بالمركز الأحادي و السرد المركزي ؛ إذ لم تتغير فكرة الرواية من البداية حتى نهايتها .

لم تستطع الروائية الانفكاك من إسار الإيديولوجية التي تؤمن بها ، حيث جعلت من نفسها الرقيب الأساسي على أفكار و طموحات شخصياتها ، فصارت تفكر و تحب و تكره بلسان الروائية لا بلسانها ، و قد أظهرت الروائية ذلك في ثنايا الرواية بصوت الراوي الذي يفضحها .

الملمح العام في الرواية هو الطرح الواقعي في السرد ؛ و كأن الروائية ملزمة بتقديم الأحداث التي مرت بها شخصياتها ؛ نقلا بأمانة الأمين .

حاولت الروائية بصدق أنثوي و روح إنسانية النبش في نقاط الاتفاق و التقارب بين الأديان السماوية ، لنبذ الروح العدائية ، و إحداث المؤاخاة الإنسانية المنشودة من كل البشر .

---

[1] / خولة حمدي : في قلبي أنثى عبرية . ص 639

اقتحمت الرواية موضوعا حساسا جدا ؛ قضية الآخر المختلف المعادي، بكل جرأة، و استنطقت المخبوء الجميل في نفوس شخصياته.

خضع المشهد الروائي عند خولة حمدي في روايتها إلى الخصوصية النسوية في التكوين البيولوجي المختلف، حيث نلمس تغليب استعمال الأحاسيس ؛ من الشم ، و اللمس ، و الإحساس ، و النظر ، و الحلم في عالمها المتخيل ، فكم ذا حشدت كل الأحاسيس في بطلتها ندى في علاقتها و حبها لأحمد ؛ (النظر ، اللمس ، اللهفة ، الشم ، الذاكرة المصاحبة لرجفة القلب ، الدمع السخي...) .

المصادر و المراجع :

1 - خولة حمدي: في قلبي أنثى عبرية.دار كيان للنشر و التوزيع.الهرم.القاهرة.2013.
2 - أحمد ندا – أدب المهمشين بين النخبة والصعاليك. موقع : masn.20 at .com/ New article .phpsid = 9400.56
3 - أحمد إبراهيم طيبة:تطابق الصورة في متوازي الأعمال الروائية للمرأة و الرجل.مجلة الفكر. العدد 2 .2002.
4 - إبراهيم صبيح وآخرون:دراسات في اللغة والنحو والأدب . دار المناهج للنشر.عمان الأردن.ط2. 1980.
5 - جريدة الأسبوع الأدبي : إطلالات على شعر و نقد النسوية الأمريكية .العدد 981. 2005 .

6 - رحيم عبد القادر ، وظائف العنوان في شعر مصطفى محمد الغماري
7 - عبد الله الغذامي : المرأة و اللغة . ط3 .
8 - عز الدين إسماعيل : الأدب و فنونه.دار الفكر العربي.ط8.
9 - غادة السمان : القبلة تستوجب القتيلة.(حوار مع حبيب حنا).منشورات غادة السمان.بيروت.1981.

10 - صبري حافظ:الخصائص البنائية للأقصوصة . مجلة فصول . القاهرة . مجلد 2 /ع 4 . سبتمبر 1982.
11 - محمد بن سعيد: أدب الهامش في المغرب : صورة المرأة ، موقع www :hac 2 univ .com
12 - محمد صفوري : الأدب النسوي (إشكالية المصطلح و ثورة في المضامين)
13 - محمد لطيف اليوسفي:لحظة المكاشفة الشعرية.الدار التونسية للنشر.تونس.
14 - محمد فكري الجزار:العنوان و سيميوطيقا الاتصال الأدبي .الهيئة المصرية للكتاب.1998.
15 - محمد غنيمي هلال:النقد الأدبي الحديث.دار الثقافة بيروت . لبنان. 1973.
16 - يمنى العيد : مساهمة المرأة في الإنتاج الأدبي . مجلة الطريق.العدد 4 . شهر أفريل . 1975.